الفصل الخامس

ارتجفت قاعدة السيارة تحت قدمي. أحس أبو سيف أيضاً بالهزة الواضحة. قال وهو يحدق عبر الزجاج الأمامي "سيارة مفخخة". لم نكن قد سمعنا دوي الانفجار؛ لأن العربة المصفحة التي كانت **البوست** تستخدمها ـ سيارة جيب قديمة وقع الاختيار عليها لسرعتها ومرونتها ـ كانت محكمة الإغلاق. خلافاً لحال سيارات السباق المصفحة الخفيفة التي درج المتعاقدون الأجانب والموظفون العراقيون على استخدامها في بغداد، فإن سيارتنا لم تكن تفضح أمرنا أو تعلن عن وجودنا. مطلية بلون باهت كانت بشعة على نحوٍ متعمد كي تختلط بالعربات المتداعية التي كان الكادحون الفقراء يستخدمونها في العراق. ومع أن أي خبير أمني كان يستطيع أن يكتشف أن الجيب كانت مصفحة، فإننا كنا نأمل في أن يخفق الشخص العادي، أو المتمرد العادي، ألا يكون متوفراً على مثل هذه المهارة.

ومع أننا لم نسمع القنبلة وهي تنفجر، فإننا سرعان ما رأينا ريشة دخان على مسافة نصف ميل. قلت لأبي سيف وعمر الثاني الذي كان يتولى القيادة في العودة من حي المنصور البغدادي الذي كنت أجري فيه بعض المقابلات عن فضيحة أبو غريب: "دعونا نذهب إلى هناك لنرى!" دار عمر الثاني دورة كاملة

على الشارع الرئيسي في قلب بغداد وتوجه نحو عمود الدخان، متلوياً عبر طرق سكنية، ضيقة محاطة ببيوت حجرية أنيقة ذات بوابات حديدية حامية لفناءات صغيرة، بدت نباتاتها البنية متعرضة دون شك لنوع من الشواء تحت شمس الصيف اللاهبة.

كانت العبوة قد تفجرت على إحدى الطرق الرئيسية الممتدة بموازاة محور المنطقة الخضراء. في عهد صدام لم يكن يُسمح للسيارات بالتوقف أو التباطؤ في هذا الشارع وكانت الشرطة المكلفة بحراسة المجمع الرئاسي تعاقب المخالفين. كان العراقيون يصلّون ملتمسين ألا تثقب إطارات سياراتهم على هذا الطريق لأن ذلك كان من شأنه، دون أي شك، أن يوصلهم إلى السجن للاشتباه بوجود مؤامرة ضد الحكومة. ثمة شيء واحد لم يتغير منذ الإطاحة بصدام. لم يكن أحد يتباطأ على هذه الطريق - لا خوفاً من الاعتقال بل خشية التعرض للنسف خارج مدخلي المنطقة الخضراء الرئيسين: نقطة التفتيش المركزية العادية وبوابة القاتل التي لُقبت بهذه التسمية بسبب كثرة السيارات المفخخة التي انفجرت أمام أقواسها الحجرية. كنت أتصبب عرقاً كلما مررنا ببوابة القاتل، بل وتتسارع دقات قلبي أكثر عند حصول أي ازدحام وإبطاء. عند أي توقف كنت أشعر كما لو كنت بطة جاثمة مطوقة ببنادق الصيادين.

كان جنود أمريكيون قد ضربوا حزاماً حول البقعة التي شهدت التفجير، مما اضطرنا لإيقاف السيارة والمشي للوصول إلى الحطام، كومة متفحمة لما كانت سيارة سباق عائدة إلى متعاقدين أمنيين بريطانيين. جثتان كانتا باقيتين في العربة، أفادنا الشهود، رغم أن الجنود كانوا قد غلفوا الجانب بقماشة سوداء لإخفاء المشهد. حسب رواية شهود العيان، كانت قافلة مؤلفة من سيارتين قد غادرت المنطقة الخضراء خارجة من بوابة القاتل عندما تفجرت السيارة الثانية متحولة إلى كرة من النار. منعني الجنود من تجاوز الشريط الأصفر للتحدث مع أصحاب المحلات، فتسلل أبو سيف لاستجوابهم والسعي إلى معرفة الحقائق.

ثمة لحّام قال إنه سمع إطلاقاً للنار وظن أن متمردين كانوا قد أصابوا السيارة متسببين بانفجار خزان الوقود. قدر أحد المتفرجين أن المتمردين كانوا قد زرعوا قنبلة في الطريق، رواية اعترض عليها أصحاب المحلات؛ كان الوقت منتصف النهار آخر المطاف. كان لابد لأحدهم من أن يرى شيئاً، حسب محاكمتهم. آخرون وصفوا دوران العربة الأولى حول نفسها بعد الهجوم، التقاطها لاثنين جرحا ولكن لم يُقتلا، وانطلاقها بسرعة. كانت شكوك الجنود تشير إلى احتمال تفخيخ السيارة بقنبلة داخل المنطقة الخضراء استناداً إلى نمط احتراقها. بدا هذا الرأي أكثر إثارة للقلق حتى من فكرة قيام متمردين بزرع عبوة ناسفة في الطريق في وضح النهار على شارع مزدحم بالسيارات والمشاة. كان من شأن أي تدبير داخلي أن يبرهن بأن المنطقة الخضراء باتت مخترقة.

كما كان نموذجياً في أي حادث تفجير، نادراً ما كان الشهود قد رأوا الشيء نفسه، وقد تعين علينا، فريق المترجمين وأنا، أن نكثر من المساومة والتدقيق بحثاً عن الحقيقة، طالبين من الناس أن يكرروا الكلام عما شاهدوه مرة بعد أخرى للتأكد من بقاء التفاصيل على حالها، في غمرة الفوضى المجبولة بالدم. كان لابد لنا من مقارنة ما رآه المارة والمتفرجون مع ما عاشه الجرحى الناجون وصولاً إلى حقيقة ما حصل بطريقةٍ ما.

فيما بعد أكدت السفارة البريطانية أن اثنين من مواطنيها ـ متعاقد أمني من مجموعة كونترول ريسكس يدعى مارك كارمن، ومستشار نفطي لدى وزارة الخارجية البريطانية يدعى بوب مورغان ـ قُتلا في الانفجار الذي قرر المحققون أنه نجم عن عبوة ناسفة مزروعة بالقرب من منتصف الطريق. ما من مرة ذهبنا فيها إلى المنطقة الخضراء إلا واضطررنا للإبطاء لتجنب الحفرة الكبيرة التي خلفها الهجوم على المتعاقدين. وكلما خَضَّتْ السيارة كنت أعود بالذاكرة إلى صورة السيارة المتفحمة، وأفكر بأولئك الذين قضوا. ونتيجة الاعتياد سرعان

ما بدأت ألوذ بميدالية القديس كرستوفر المعلقة حول رقبتي، فتصبح حركة السيارة وحركة يدي إيقاعاً للطريق القاتلة. **بطء. تعثر. تلمس. بطء. تعثر. تلمس.**

مع رحيل الصيف، أقلعت عن الذهاب إلى الانفجارات الشبيهة بتلك. وفي المناسبات النادرة التي كنت أفعل فيها ذلك، كنت أحرص على أن أقف بعيداً وألا أبقى في المكان أكثر من نحو عشر دقائق بدأ المتمردون يستهدفون المسعفين، الجنود الأمريكيين، وعناصر الشرطة العراقية الآتين إلى مسرح الهجوم بقنبلة ثانية أو بنيران القناصة.

أما السفر إلى خارج بغداد فكان قد عُلق كلياً في هذه المرحلة ما لم تتوفر لنا رحلة برفقة الجيش. لم يكن إعلاني لهويتي الأمريكية آمناً حقاً في أي وقت من الأوقات، غير أن مجرد العمل مع أحد الأجانب أصبح حتى أشد خطراً بالنسبة إلى العراقيين العاملين في مكتبنا. لم نكن نتسكع في أي مكان عام. وإذا رغبت في التحدث مع أحدهم في الشارع. كنت أرسل أحد العاملين العراقيين لإجراء المقابلات أو كنت اندس في محل معين لبضع دقائق ثم أتسلل خارجة متجنبة البقاء مدة تكفي لانكشاف هويتي.

أقلعت أيضاً عن عادة اصطحاب جواز سفري لدى مغادرتي للمكتب وبدأت أتخلى عن طرائقي الأمريكية، الأشياء الصغيرة جداً التي كان من شأنها أن تفضحني بوصفي أجنبية: تجرع الماء من القنينة مباشرة، المشي بسرعة مفرطة، أو الإكثار من الابتسام. فالعراقيون كانوا يعانون، آخر المطاف، كما ذكرني العاملون في مكتبنا، وهم عاكفون على تسليحي بالعلوم السلوكية التي من شأنها أن تقيني من خطر الظهور بمظهر تلك السائحة النموذجية كثيرة الحركة، عالية الصوت ذات القبعة المتهدلة، الجوربين الأسودين، والخفين الأبيضين. نصحني العاملون بارتداء قمصان طويلة تغطي مؤخرتي وتعليق حقيبتي اليدوية على

كوعي تماماً كما كانت جدتي تفعل. وبالفعل فإن حقيبة اليد التي اشتراها لي أحد الحراس الشخصيين بدت شبيهة بواحدة كانت لدى جدتي. كانت تحمل أحرف عبارة "السيدة فيلدز"، جاعلة إياي أتصور أنني حاملة كعكة كبيرة. في الشوارع كان يُفترض ألا أضحك أو أنظر في العيون مثل الرجال، كي لا يظن المارة أنني عاهرة مغازلة. ذبت في بوتقة هويتي العراقية، عازمة حتى على تبني اسم عراقي كان بوسع المترجمين استخدامه لمناداتي في أثناء وجودنا في الشارع. صار اسمي فرح. نعم **فرح**، الزوج الرابعة لمدير مكتبنا عمر. كنت ربة بيت، صماء وبكماء، الأمر الذي كان من شأنه أن يفسر عدم تواصلي إذا ما أوقف المتمردون سيارتنا. في أثناء العمل لم يسبق لي أن قلت للناس في الشارع أنني أعمل في **الواشنطن بوست**. في مناسبات معينة، التزمت الصمت الكامل كي لا أكشف عن قدرتي على التكلم باللغة الإنجليزية. أكثر الأحيان كان العاملون يبلغون الناس الذين كنا نقابلهم بأنني من كندا أو من أكرانيا. فكندا لم تكن قد أرسلت أي قوات إلى العراق، وكانت في أكرانيا جالية مسلمة ذات شأن، بمن فيها أتباع حركة إسلامية جذرية متطرفة معروفة باسم الحركة الوهابية، كانت هي الأخرى ناشطة في العراق، على الرغم من أن لأكرانيا هذه قطعة صغيرة من القوات.

ذات عصر ذهبنا، هدى وأنا، لإجراء مقابلة مع عدد من الرجال خارج دكان للحلاقة وقص الشعر. اثنان منهم كانا يرتاحان بعد زيارة أقرباء جرحى في أحد المشافي القريبة. كانا يريدان حلاقة ذقن وقصاً للشعر. هدى وأنا كنا نغطي رأسينا ونتهامس بالإنجليزية مع مواصلة هدى للتحدث مع الرجال حول فريق كرة القدم العراقي المشارك في الألعاب الأولمبية في الصيف باليونان. خرج صبي صغير من محل أجهزة إلكترونية معه إبريق وسخ فيه ماء حنفية. صب الماء في كأس وقدمه إلي. ابتسمت وهززت رأسي. أردت أن أفسر بالإنجليزية: لا، شكراً أيها الصغير. لا أريد أن أشرب ماءك الوسخ الذي سيسبب لي المرض الشديد. **لا أستطيع تصور شخص في الولايات المتحدة يقدم مثل هذا العرض إلى**

مراسلة توقفت لإجراء مقابلة. إنك تعاملني كضيفة، لا كعلقة. إلا أن الماء وسخ جداً، جداً و.... ظل يصر على إقحام الكأس بيدي، فيما توقف الآخرون عن التحدث مع هدى وراحوا يحدقون. مالت هدى علي وهمست: "اشربي الماء. إنك تثيرين الفضول. من غير اللائق أن ترفضي." تجرعت الكأس دفعة واحدة آملة أن تلقى التضحية تقديراً فعلياً لدى **الواشنطن بوست**. سارعت هدى إلى لملمة المقابلة وهرعنا مسرعتين في طريق العودة إلى المكتب توجساً من احتمال إصابتي بمرض، وقد حدث فعلاً.

يوم بث التلفزيون العراقي لنبأ تولي غازي الياور الرئاسة الانتقالية الجديدة للبلاد، خرجت للتحدث مع الناس في الشارع حول آرائهم بالياور. كان عمر مع راجيف المشغول بتغطية الإعلان، وكانت هدى في مهمة ترجمة لدان وليمز. أما بسام فرفض مغادرة المكتب لأن راجيف كان قد قال له إن المكتب يجب أن يبقى مأهولاً كل الوقت بأحد العاملين. حاولت إقناع بسام بوجود استثناءات للقاعدة وكان هذا واحداً من تلك الاستثناءات، إلا أنه لم يتأثر. كان شديد الخوف من التعرض لغضب راجيف، صدام الصغير. وهكذا فقد وجدتني مصطحبة المدير الأمني، مهنداً، للترجمة. كان مهند هذا يعرف ما يكفي من الإنجليزية لمثل هذا النوع من الكلام الشارعي، إلا أنه بقي متوتراً. لم يستطع أن يصطحب مسدسه لأن مراسلينا ومترجمينا لم يكونوا مسلحين، التزاماً بقاعدة مقبولة عموماً لدى أكثرية العاملين في ميدان الصحافة. لم يسبق لمهند أن كان في شوارع بغداد دون مسدسه منذ أن كان في الرابعة عشرة من العمر. ظل يمد يده إلى وسطه كما لو كان يبحث عن طرف خيالي. ذهبنا إلى أحد محلاتي المفضلة في أحد الشوارع التجارية المزدحمة بحي الكرادة، مطعم أنيق بمظلة حمراء فاقعة، طاولات خارجية، و"صندويشات" فلافل عملاقة. لم يسبق أن سُمح لي بالجلوس في هذا المطعم وتناول الطعام لأسباب أمنية، غير أن فلاحاً كان أحياناً يجلب لي "صندويشة" فلافل فيما أنتظره أنا في السيارة. رأى راجيف أنني كنت أعرض

معدتي للخطر بتناولي لمادتي الخس والبندورة النيئتين المحشوتين في "الصندويشة"، إلا أن فلاحاً كان قد طمأنني بصوته المفرط جدية إلى أن هذا المحل كان نظيفاً.

صف فلاح السيارة إلى جانب طريق قريب من كشك لبيع البطاطا المقلية منزلياً، أما مهند وأنا فذهبنا إلى المحل للاطلاع على ما كان يجري. كنت أغطي رأسي بغطاء إسلامي وردي وبني ووقفت صامتة بجانب مهند الذي راح يقدمني بوصفي مراسلة مسلمة من كندا. الشخص القابع وراء المنضدة لم يرغب في الكلام، ولكنه قدم لي قنينة صودا مجانية، لم أستطع تبرير عدم ترحيبي بالأمر. أقله لم يكن الماء ملوثاً. في البدء بدا الناس شديدي العزوف عن الكلام مع مهند. إلا أنهم ما لبثوا أن انفتحوا فالتقط مهند عدداً من العبارات الرائعة بما فيها تلك التي أطلقها رجل كان عاكفاً على فصل لحم الخروف عن العظم قائلاً إن الانتخاب الرئاسي لم يكن إلا "مسرحية مُثلت على الشعب." وبعد العودة إلى السيارة رحت أمطر مهنداً بالأسئلة عن قدرته على استنطاق الناس رغم عدم اشتغاله بالمراسلة من قبل وأنا أمضغ البطاطا المقلية منزلياً الدسمة والمنكهة بالكاري التي أصر فلاح على أن آكلها كي أسمن فأتمكن من العثور على زوج لي.

"قلت لهم: "عليكم أن تتحدثوا معنا. لم يعد صدام موجوداً. أنتم أغبياء إذا شعرتم بالخوف. تكلموا!"

بصقت قطعة بطاطا مقلية وقلت: "اسمع يا مهند! لا يجوز إكراه الناس على التحدث مع **الواشنطن بوست**."

رد مهند: "لا تقلقي! قلت لهم إننا من **التورنتو ستار**."

تلك كانت المرة الأخيرة التي أصطحب فيها مهنداً مترجماً. بات قادراً على ملازمة مسدسه بعد الآن.

ما من مهمة كانت سهلة في العراق، ولاسيما تلك المنطوية على إجراء مقابلات مع رسميين عراقيين. لم تكن لأكثرية الدوائر الحكومية خطوط أرضية شغالة. ومع أن كبار المسؤولين كانوا يحملون هواتف جوالة، فإنهم لم يكونوا يبوحون بأرقامهم. تمثلت الطريقة الوحيدة لتحديد موعد مقابلة بالزيارة والطلب المباشر الأمر الذي كان من شأنه أن يستغرق يومين أو أسبوعاً كاملاً. وإذا لم يتصل بنا أحد لتأكيد الموعد كان يتعين علينا أن نتسكع ثانية لمعاودة الطلب.

للكتابة عن اختطاف أطباء العراقيين طلباً للفدية، ذهبت مع هدى إلى المستشفى التعليمي الرئيسي ببغداد بحثاً عن أطباء نقابلهم. استغرق الوصول إلى المستشفى، وهو على مسافة ميلين فقط، ساعتين كاملتين، بسبب الصوادم أو السدات الكثيرة على الطريق، التي هي أحد التطورات الأخرى في عراق ما بعد الحرب. ذهبنا إلى باب المستشفى الأمامي وتعين علينا إقناع عناصر الأمن بأننا زوار مهمون ولابد لنا من رؤية مدير المستشفى ـ كنا بحاجة لإذن المدير كي نتمكن من دخول حرم المستشفى. غير أن سكرتيرة المدير رفضت السماح لنا بالتحدث معه. قالت إن علينا أن نكون مزودين بكتاب من وزارة الصحة يمكننا من دخول المستشفى. لم يكن بحوزتنا مثل هذا الكتاب.

في أثناء المغادرة. توقفنا في بهو مزدحم بشباب ذوي سترات بيضاء. كان كبير المقيمين يعقد اجتماعاً حين دخلنا، وتوقف عن الكلام فور رؤيته إيانا. توسلتْ هدى إليه راجية إياه أن يتابع الكلام كي لا تضيع رحلتنا دون جدوى. رفض أن يجري أي مقابلة معنا إلا أنه اقترح احتمال الصعود إلى الطبقة الأعلى للتحدث مع أطباء أعلى مرتبة. لم يأت على ذكر الحاجة إلى كتاب، ربما لأنه لم يكن يعرف. عادتَيْن هذا إذناً صادراً عن أحد أصحاب السلطة، تسللنا، هدى وأنا، إلى سلم قذر وتبعنا رتلاً من متسلقي الدرج. كان المستشفى كئيباً، أشبه بأحد ملاعب الباولنغ الملأى بالدخان في ديترويت. كان المرضى يرتدون ملابسهم الخاصة وثلاثة أو أربعة منهم يتقاسمون الغرفة نفسها. القريبات كن يخدمن

المرضى بدلاً من الممرضات. عثرنا على طبيبين مستعدين للتحدث عن المشكلة التي كانوا يواجهونها في خلوة غرف المعاينة الخالية: العشرات من زملائهم كانوا قد خُطفوا من قبل مجرمين راغبين في الحصول على فدية. ثمة أطباء آخرون كانوا قد خطفوا وقُتلوا. وهذان الطبيبان كانا يخططان للهرب من العراق مع عائلتيهما. في عهد صدام كان الطبيب يحصل على نحو 20 دولاراً في الشهر. وزارة الصحة الجديدة رفعت الراتب إلى 200 دولار في الشهر. غير أن الأطباء مازالوا، مع ذلك، عاجزين عن توفير عشرات آلاف الدولارات التي كان عدد كبير من المختطِفين يطلبونها. شجعنا الطبيبان على تعقب جرّاح تعرض أولاده للاختطاف. كان المختطفون قد طلبوا 200000 دولار مقابل إعادة الأولاد سالمين. لم يكن الجرّاح موجوداً في ذلك اليوم، فتعين علينا أن نأتي مرة أخرى في اليوم التالي لإطلاق العملية من بدايتها من جديد. لم نذهب قط. قصص أخرى حالت دون ذلك ـ تطورات سياسية، هجمات على متطوعي شرطة، حوادث جديدة، اغتيالات، تشكيل الجيش العراقي ـ وكان علينا أن نتحرك قدماً لمتابعة ذلك كله.

أعجبني الخروج والاختلاط بالعراقيين العاديين، ولو تعين علي أن أقدم تقاريري دون تأخير وعلى فترات زمنية قصيرة. تلك كانت فرصتي الوحيدة كي أكون جزءاً من حياة العراق.

لدى وجودي في السيارة مع فلاح، كثيراً ما كان الأخير يرفض التكلم بالإنجليزية ويفضل الإشارة إلى الأشياء التي نمر بها معلناً أسماءها بالعربية بصوت مرتفع، تلك الأسماء التي كان يجبرني على ترديدها: **يسار، يمين، سيارة.** كنت أحاول أن أبدو رابطة الجأش، لا مبالية، وأشبه بفتاة محلية، وأنا مستغرقة في الانبهار بمشاهد المدينة، بالصفوف اللانهائية من الدكاكين، التي كان يقوم أصحابها في الغالب ببيع سلعهم في الظلام بعد انقطاع التيار الكهربائي. كانت بغداد عاصمة مزدهرة، مشهد أحوال طبيعية خادع أكثر الأحيان، إذا ما نظر

المرء إلى الأسلاك الشائكة، الدبابات الأمريكية، ضباط الشرطة المقنعين بالأقنعة السوداء إخفاء لهوياتهم عن المتمردين. في تلك الجولات السيارة برفقة فلاح، كنت أركز على عراق آخر، عراق خال من أي سيارات مفخخة، عراق لا يعاني من أي نقص في مياه الشرب، عراق لا يعاني من انقطاع التيار الكهربائي، عراق لا يخاف من أي عمليات اختطاف. درّبت عيني على متابعة الشريط الملون للحياة المارة وراء النافذة. تلاميذ يحملون الحقائب على ظهورهم ممسكون بأيدي بعضهم في الطريق إلى المدرسة. أطفال يلعبون كرة القدم منتصف الطريق الترابية. شاحنات محملة بالعنب والبندورة. أنصاف ذبائح بقرية هزيلة معلقة في واجهات محلات القصابين. سيارات مزينة لحفلات الزفاف أيام الاثنين والخميس. إعلانات دعاية لهواتف جوالة. إنه أحد الألغاز الجميلة للروح الإنسانية ـ حتى في أسوأ الأحوال، حتى حين يكون البلد موشكاً على التمزق أشلاء (لاشك أن العراق بدا موشكاً على التمزق)، لم يتوقف الناس عن متابعة الحياة. شيء ما في أعماقنا يقول لنا: إياكم أن تتوقفوا! خذوا نَفَساً! تابعوا التنفس طالما بقيت رئاتكم قادرة على استقبال الهواء! حتى مع بلاد العنف المتكرر مرة بعد أخرى، ظل الناس يتنفسون، وكنت أنا أرتجف في المقعد الخلفي من تلك السيارة، وأنا أراقب شهيقهم وزفيرهم الجماعيين.

تمثلت الطريقة الوحيدة لاكتشاف مشاعر العراقيين الحقيقية حيال ما كان حاصلاً وما كانوا يتعرضون له بالسؤال. فأنا أستطيع أن اكتب أن العراق كان يشعر كما لو كان موشكاً على التمزق لأن كل عراقي قابلته في الشارع، سواء أكان مؤيداً للغزو الأمريكي أم لا، قال لي بأن بلده بدا موشكاً على التمزق، وقد ظل يقوله من اليوم الأول الذي داست فيه قدمي أرض العراق إلى اليوم الذي غادرتها فيه. لا شك أن الناس كانوا يتحدثون عن الديمقراطية وعن مدى قسوة الحياة وبؤسها في ظل حكم صدام. غير أن كثيرين لم يستطيعوا أن يروا انقلاباً للأمور بعد قيام الأمريكيين بإزاحة صدام. لم يكونوا يتوقعون أن يقفوا في أرتال تمتد

أميالاً لشراء البنزين حيث كان الوصول إلى المضخة يتطلب انتظار يوم كامل بنهاره وليله. كانوا يتساءلون: أليست مفارقة مثيرة للسخرية أن يحصل هذا في عراق عائم فوق بحر من النفط، في عراق هو أحد أغنى بلدان العالم بالاحتياطيات النفطية؟ قلة فقط أتت على ذكر المفارقة الأكبر والأعظم في عراق ما بعد الحرب، على أي حال. لقد أصبح الناس الآن قادرين فعلاً على الشكوى العلنية من سوء الأوضاع والأمور. خلال المدة التي قضيتها في العراق كلها بقيت مصرة على التمسك بالتصور القائم على أن الصحافة لم تكن تتحدث إلا عن الأنباء السيئة، أننا لم نكن نكتب إلا عن شكاوى العراقيين إزاء التدهور المرعب الحاصل في حيواتهم. ظل الناس يتساءلون عن السبب الكامن وراء عدم عثورنا على أشخاص سعداء بالغزو وفرحين برحيل صدام. إن الحقيقة هي أنني لدى ذهابي إلى العراقيين للتحدث معهم عن حيواتهم، لم أكن انطلق لاكتشاف أناس يؤيدون وجهة النظر هذه أو تلك. كنت أحاول مقابلة أشخاص من خلفيات اقتصادية وعشائرية مختلفة، شيعة وسنة، عرب وأكراد، أناس كانوا مستفيدين في عهد صدام وآخرين عانوا.

كانت إحدى المشكلات متمثلة بتركز أكثرية الصحف في العاصمة العراقية، حيث كان جزء كبير من العنف حاصلاً. لم يكن العراق كله على الدرجة نفسها من السوء مثل بغداد. كما لم يكن العراق كله بالغ السوء كل الوقت. وجدتني ميالة إلى التفكير بتغطيتنا العراقية من منطلق دوائر مدينة نيويورك الانتخابية: إذا كانت البرونكس ومانهاتن تتعرضان يومياً للضرب بسيارات مفخخة، إذا كان سياح من إيوا يتعرضون للاستهداف من أجل اختطافهم في الكوينز، في حين تبقى ستاتن آيلاند وبروكلن آمنتين، فما نوع التقارير التي كنا سنكتبها؟ إذا كنا نستطيع عبور الجسر والتحدث مع الناس، فقد نكتب الآن وآنذاك عن مدى بقاء الحياة في ستاتن آيلاند وبروكلن مقبولة. إلا أن التغطية الإجمالية ـ وهي، فيما أرى، لب المسؤولية الصحفية ـ كانت ستبقى متركزة على الكتابة عن الإرهاب،

الرعب في كل من البرونكس، مانهاتن، والكوينز، عن القصة الأكبر حول مدينة نيويورك نفسها. حصل الشيء نفسه بالنسبة إلى العراق.

الطرق المنطلقة من بغداد كانت شديدة الخطورة إلى درجة بتنا معها عاجزين عن الانتقال إلى أمكنة أخرى من البلاد بأمان دون حراسة الجيش. استطعت، مثلاً، أن أقوم - وقد قمت - بزيارة محطة للطاقة في بيجي الواقعة إلى الشمال من بغداد للكتابة عن التحسن الحاصل في الشبكة الكهربائية. للوصول إلى هناك تعين علي أن أقفز إلى إحدى الحوامات العسكرية والتعرض لنيران المدافع المضادة للطائرات. لم يسمح لي باصطحاب مترجم، فلم أتمكن من الكلام مع أي من العمال هناك. كنت سأفضل الذهاب وحدي غير أن ذلك لم يكن خياراً. من الآن أسمع ما يقوله فرسان النقد. المراسلون الشجعان يقتحمون الخطر. المراسلون الشجعان يجتاحون نقاط العالم الساخنة مخاطرين بحيواتهم للكتابة عما يجري. ثمة عنف معروف وآخر غير معروف، عنف عشوائي وأنشوطة باتت معقودة ومعلقة لشنق الأحمق الذي يريد ركوب السيارة والذهاب إلى بيجي. كنت سأجسد الغباء والطيش، فيما يخص حياتي أنا وحياة العراقيين الذين يسافرون معي، لو فعلت. لذا وقع اختياري على الخيار المحدود المتمثل بالسفر مع الجيش، للكتابة عن الطاقة، للكتابة عن شيء آخر غير العنف.

وعلى الرغم من القيود، كنت موشكة، مع حلول نهاية حزيران/يونيو، على إنجاز مأثرتي. كان رئيس القسم الخارجي، ديفيد هوفمان، قد طلب مني البقاء في العراق إلى ما بعد آخر الشهر، موعد مغادرة بول بريمر، رئيس إدارة الاحتلال الأمريكية، للعراق بعد نقل السلطة إلى حكومة انتقالية جديدة بقياد طبيب عراقي منفي يدعى إياد علاوي. لم يكن هذا حدثاً سياسياً كبيراً فقط، بل وقد توقعنا زيادة هائلة في هجمات المتمردين الرامية إلى تعطيل العملية والتشويش عليها. توقعنا ذلك لأن الجيش الأمريكي حذرنا من احتمال تدهور الأوضاع. كنت قد وافقت على البقاء بشيء من المضض، لا لأنني كنت خائفة بل

لأنني كنت أشعر كما لو أنه سبق لي أن غادرت واشنطن منتصف الليل في الشهر السابق؛ عادة أمضي وقتاً أكثر في التحضير لإجازة أسبوع واحد مقارنة بما فعلت بالنسبة إلى شهري الكامل في العراق. إذا كنت سأبقى بعيدة مدة أطول، كان لابد لي من إلغاء اتصالاتي بالكوابل والهاتف الخليوي. أردت أن أزور جدتي في إيلينوي. كذلك كانت مؤونتي من عدسات الاتصال موشكة على النفاد. وعلى الرغم من أن قضية جيرمي سيفيتس كانت قد لُفت بسرعة بعد موافقته على الإقرار بالذنب، فإن محامي الجنود المتهمين الستة الآخرين كانوا يقسمون على متابعة الكفاح لإقناع قاضٍ عسكري بعقد الجزء الباقي من المحاكمة العسكرية خارج العراق. إذا قررت البقاء لمتابعة تلك القصة، فقد تمر أسابيع أو حتى أشهر بين الجلسات الحقوقية. كانت بؤرة الفضيحة قد عادت إلى واشنطن حيث راحت الندوات الممحِّصة تستعرض تفاصيل إساءة المعاملة. كان ذلك رائعاً بالنسبة لي. كنت متلهفة لكتابة قصص أخرى من العراق، قصص عن الحياة المدنية، عن عمليات إعادة البناء، عن كل ما كان بوسعي الوصول إليه. لم أكن راغبة في أن أبقى مراسلة أبو غريب فقط. كان راجيف والمحررون يشجعونني على التنويع والتوسع أيضاً.

مع حلول ذلك الصيف، باتت **البوست** تعاني أكثر في العثور على أناس يتطوعون للعمل في العراق. إن قيود السفر والتدابير الأمنية التي تعين علينا أن نعمل في ظلها كانت قد جردت تجربة الذهاب إلى ما وراء البحار من جاذبيتها. تعين على المراسلين أن يروزوا جميع مخاطر الوجود في العراق مع فرصة تغطية قصة تاريخية كبرى ومثيرة، قصة كان المحررون في واشنطن شديدي الاهتمام بها. بالنسبة إلى عدد كبير من المراسلين، لم تكن المقامرة كافية لتسويغ رحلة عبر العراق.

مع أنني لم أكن من العاملين في الجهاز الخارجي، من وجهة نظر المحرر، فقد كنت متوفرة على ميزة تؤهلني للبقاء هناك: كنت هناك سلفاً. كذلك كنت قد

بدأت أثبت أنني لم أكن عبئاً بمقدار ما كنت ذُخراً ـ ليس فقط على صعيد القصص والتقارير التي درجت على كتابتها. كنت متدنية تكاليف الصيانة. لم أكن أتذمر. كنت أساير الجميع وألاطفهم؛ كان أسلوب العودة باحترام إلى المراسلين الأعلى مرتبة في المكتب، هؤلاء المراسلين الذين كانت تجربتهم الجماعية البالغة عقوداً من الزمن في جل النزاعات الكبرى في تاريخ العالم، للمشورة، يشعرني بالتواضع. أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أدرس هؤلاء الأساتذة الكبار، الحجج؛ أعاين كيف يتناولون هذه القصة أو تلك؛ أدقق في الأسئلة التي يوجهونها. لم أكن أبالي باحتلال مرتبة العضو الأدنى مرتبة في المكتب لأن أحداً لم يكن يعاملني من مثل هذا المنطلق. وكنت واثقة من قدرتي على إنجاز المهمة.

كنت أعزف على أوتار الأخبار اليومية الصاخبة من مكتبي ليلاً فيما كان راجيف يبقى عاكفاً على إعداد مسلسل عملاق تدشيناً لعملية تسليم الحكم. كنت قد انتقلت من غرفتي الموبوءة بالبق إلى أخرى ملاصقة لغرفته. حين كنت أشعر بحاجة إلى فترة استراحة من الكتابة، كنت ألعب كرة القدم في الممر مع الحراس، راكضة حافية مع الطابة ومحاولة عدم تعريض تنورتي للتمزق. كان دان وليمز قد غادر العراق بعد أن كاد يقع في كمين على الطريق الرئيسية إلى الفلوجة ببضعة أيام، وكنا، راجيف وأنا، نتدبر إدارة المكتب مع المراسلين دوغ ستروك وإدكودي إلى أن جاء كارل فيك. كان التعب قد هدّنا.

استيقظت صباح 27 حزيران/يونيو وفتحت الكومبيوتر لتفقد بريدي الإلكتروني. ثمة كانت رسالة من جني معنونة بالعبارة التالية: "**اتصلي معنا بأقصى سرعة ممكنة**". فتحت الرسالة، وكانت قد أوردت رقم هاتفها الخليوي مع رسالة تطالبني بعدم الإفراط في الخوف. كتبت: "اتصلي بي فقط." لم أفزع. توقعت أن تكون إحدى جدتي قد ماتت. ربما كان ذلك حدساً توأمياً أو الأسلوب الحذر الذي اعتمدته جني في مطالبتي بالاتصال مع الأهل ولكن دون فزع. من الرنين الأول للهاتف ردت جني وقالت: "الجدة هانيكل ماتت"، مشيرة إلى جدتنا

من ناحية الأم، كما درجنا على الإشارة إليها باستمرار تمييزاً لها عن الجدة سبنر. أنهيت المكالمة بعد بضع دقائق وذهبت لإبلاغ الشباب في المكتب. جدتي كانت في الثالثة والتسعين من العمر. كان حديثي الأخير معها قبل بضعة أيام من مغادرتي إلى العراق. كنت قد وقفت على درجات المرفأ الداخلي لبلتيمور، فيما كانت الأنوار المتلألئة للقوارب تغمز من الماء، مصغية إلى صوتها الأجش وهي توصيني بأن أكون طيبة. قائلة: "لقد كنت أنت الأعذب على الدوام" قبل أن تنتهي المكالمة. التفت إلى صديقتي سوزي التي كانت واقفة بجانبي وقلت: "ينبغي أن تكون قد ظنت أنني جني."

باستمرار كانت جني هي العذبة، هي الحلوة، هي الطيبة. في المرحلة الثانوية كنت أقيم الحفلات في بيت أجدادي في أثناء غيابهم، وهو أمر يخجلني الاعتراف به وأنا راشدة. لم يكن يحلو لي قط أن أقوم بالأشياء كما كان يفترض في أن أفعل. كنت أشعر بأنني مكبلة جراء تربيتي الصارمة، مقيدة بفكرة أن ليس ثمة إلا طريقة واحدة للقيام بالأشياء. ذلك هو السبب الذي دفعني إلى الرحيل إلى كاليفورنيا بعد التخرج في الكلية بإيلينوي الجنوبية. كنت شديدة الرغبة في اختبار نقيض ما كنت قد عرفته على الدوام. صدقوا أو لا تصدقوا! لم أعرف ما تعنيه كلمة **باغل** إلى أن بلغت الثالثة والعشرين من العمر. ناضجة ومتصالحة منذ زمن طويل بل وممتنة لتنشئتي، حزنت كثيراً لأنني كنت قد أخفقت في وداع جدتي شخصياً قبل المغادرة. كنت قد أبلغت راجيف، بيني وبينه، أن سبب انزعاجي الأول تمثل بعدم قولي وداعاً لجدتي. أردت العودة لحضور الجنازة، غير أن المطار كان موشكاً أن يغلق كاحتياط أمني قبل عملية تسليم الحكم. قال راجيف إنه لم يكن لدي سوى ساعة واحدة لاتخاذ قراري. عجزت عن التفكير. ذهبت إلى غرفتي أغلقت الباب، وتنهدت بعمق. بالطبع تعين علي أن أعود إلى الأهل. نهضت ثانية وذهبت إلى راجيف في الغرفة المجاورة وقلت: "هل تستطيع تمكيني من الالتحاق بالأهل؟" سارع راجيف إلى حجز مقعد لي على

الطائرة الأخيرة المغادرة قبل إغلاق المطار. في الأردن على الطريق إلى الولايات المتحدة شاهدت شاشة السي. إن. إن. وهي تعرض شريط الأنباء الأخيرة: في احتفال سري، كان بريمر قد سلم سلطة الحكم إلى العراقيين قبل يومين من الموعد. كان التاريخ هو 28 حزيران/يونيو. بات العراق بلداً ذا سيادة وجدتي ماتت.

بقيت مشوشة كل الوقت الذي أمضيته مع أهلي. جلست بوجه جامد كأنه منحوت من الصخر في جنازة جدتي، دون ذرف ولو دمعة واحدة. حاولت أن أبكي. كنت أحبها كثيراً، وكنا على علاقة حميمة. رأيت أمي وهي تبكي، وحاولت البكاء رثاء لحالها. لقد أصبحت أمي وحيدة حقاً الآن. بعد موت أبي كانت تزور جدتي كل ليلة تقريباً، مغطية إياها، قارئة لها، مصلية معها. في إحدى المرات الأخيرة التي رأيت فيها جدتي كانت قابعة في كرسي متحرك في إحدى دور المسنين. كانت متعبة وشديدة الرغبة في النوم في مضجعها الوردي. غادرت غرفتها بحثاً عن ممرضة تساعدني على نقلها إلى الكرسي. لم أُوفق في العثور على واحدة، فعدت إلى الغرفة. سألتها:

"جدتي، هل تثقين بي؟"

أومأت برأسها أن نعم.

انحنيت ووضعت يدي تحت جسمها الهش، كانت بشرتها شفافة فتمكنت من مشاهدة شبكة أوعيتها الدموية الزرقاء. رفعتها ونقلتها إلى الكرسي. لم يكن وزن كلينا يزيد على المئة من الأرطال الإنجليزية، وبذلت جهداً كي أحملها دون إيذائها بين ذراعي. ابتسمت لي حين وضعتها في الكرسي وطلبت مني أن أقرأ لها من إنجيلها. دارت لتغرق في النوم وأنا أتابع القراءة. بكيت وأنا عائدة إلى البيت في ذلك اليوم، أما في جنازتها، فلم أتمكن من إجبار الدموع على الانهمار. احتضنت أمي، كما كنت قد فعلت عندما مات أبي، مثبتة ذراعي على كتفيها لدى سيرنا

خلف الجثمان إلى داخل الكنيسة. لم يتهدج صوتي وأنا أقرأ رثاء جدتي أمام الصفوف الملأى بالأهل والمعزين.

ظلت جني تراقبني. استطعت الإحساس بتحديقها ولكن دون الإمساك بحدسها. ثمة شيء كان قد انقطع، ثمة مجسة كانت قد مكنتنا من أن نعرف في أحشائنا ما كان كل منا يشعر به، يفكر به. بعد أشهر أدركت أنني كنت فصلت مجستي من ناحيتي، على مسؤوليتي الخاصة. أردت حماية جني من العنف في العراق، من الأخطار المهددة لنا. إلا أنني كنت شديدة الرغبة في حمايتها من إدراكي المتنامي بحقيقة أنني كنت أريد أن أكون في العراق بدلاً من البقاء هنا مع الأهل قابعة بأمان في حياتي، في حياتنا.

وبعد أن دفناها بالقرب من جدي، في المقبرة التي كان فيها أبي نفسها، عدنا إلى الكنيسة لتناول غداء خفيف. أقاربي سحبوا كراسيهم إلى مائدتي. "حدثينا عن الواقع لفعلي في العراق!" على امتداد أكثر من ساعة تكلمت عن العراق، عن المتفجرات، عن عمر وبسام وأبي سيف. تكلمت إلى أن بُح صوتي، إلى أن كنت قد أفرغت جعبتي من القصص والأخبار، غير متنبهة إلى الحال التي آل إليها صوتي. تكلمت إلى أن بقيت دون أي شيء أقوله.

بدا الرجوع إلى العراق، الهرب إلى القصص والأخبار، إلى الألفة المريحة لانعدام الراحة، نوعاً من الانفراج. غادرت عراقاً محتلاً لأعود بعد ثلاثة أسابيع إلى عراق ذي سيادة. على الرغم من أن جنوداً أمريكيين كانوا لا يزالون يجولون في المدينة، فإنهم باتوا الآن، وعلى نحوٍ شبه دائم، مصحوبين بقوات عراقية. كان رئيس بلدية بغداد قد بدأ بتحديد الأمكنة التي يستطيع الجنود إقامة الحواجز فيها والشوارع التي تنبغي إعادة فتحها للخلاص من بعض الازدحام المروري المرعب. كانت الحكومة المؤقتة الجديدة ناشطة، وراح الوزراء الجدد يعقدون مؤتمراتهم الصحفية الخاصة باللغة بالعربية.

قمت مع بسام بزيارة رئيس بلدية بغداد، علاء محمود تميم، للاطلاع منه على أحد مشاريع تنظيف المدينة من النفايات. اقترح تميم أن نتحدث مع كبير المهندسين في دائرته، ذلك الذي كان متوفراً على الأرقام عن كميات القمامة التي كانت تُنقل وعن المبالغ التي كانت تلك العملية تكلفها من أموال دافع الضرائب الأمريكي. طفنا على القاعات ضعيفة الإضاءة لمبنى البلدية، بدورات مياهه الوسخة وتمديداته المسربة للماء الذي ملأ فسحات الأدراج مبللاً أذيال الفساتين الطويلة لموظفات المدينة. اهتدينا إلى المكتب وانتظرنا في غرفة سكرتيرة المهندس التي أفادتنا بأن المهندس راغب في مقابلة بسام. وقفت، إلا أنها سارعت إلى الإشارة بيدها إلي قائلة: "لا، عراقي فقط" ثم قادت بساماً إلى مكتب المهندس لمقابلته. كان العراقيون مصممين على استعادة بلدهم، كما هو.

رحل راجيف بُعَيْد عودتي من إجازة كنت بأمس الحاجة إليها. كان قد أمضى ما يقرب من ثمانية عشر شهراً في العراق، غارقاً في العمل بوتيرة لا تصدق، وتيرة شبه آلية. جاءتنا بام كونستابل من مكتب أفغانستان لتساهم في التعويض عن النقص الحاصل قبل عودة راجيف مصطحباً زميلين آخرين. كانت بام مولعة كثيراً بالحيوانات. أطلقت عملية إنقاذ في كابول، العاصمة الأفغانية. عثرت على هريرة في مرآب الشيراتون بعيد وصولها إلى العراق وجلبتها إلى غرفتها. ومع أنني شديدة الحساسية إزاء القطط، فقد حاولت جهدي لأتمكن من القيام بدور راعية الهريرة خدمة لباميلا عندما كانت تخرج لأداء مهمة. حمامي كان أبرد من حمامها فارتاحت الهريرة إلى أرضيتي البنية الندية مع غطاء رأس يدوي ذي مربعات حمراء وبيضاء بدلاً من بطانية. لم أبال بالأمر. كانت الهريرة عامل نسيان لطيف للحر الشديد والبائس، وإن كنت قد وضعت حداً للأمر ليلة إقدام الآنسة هريرة على القفز إلى مائدة العشاء للهو تجاوباً مع مداعبة بام المتحببة لها.

فصول الصيف في بغداد مرعبة كالجحيم. كثيراً ما يرتفع الزئبق إلى الدرجة 130، وفي غياب الكهرباء لتشغيل المراوح والمكيفات كانت المدينة كلها تغرق في جحيم مخيف. لم يكن الفندق يحصل على الطاقة إلا خلال ثلاث إلى أربع ساعات في اليوم لأن الكهرباء كان خاضعاً للتقنين الحكومي. درجنا على رشوة الفندق بمبالغ نقدية لربطنا بمولد الطوارئ كي نُبْقي مراوحنا ومكيفاتنا شغالة. كان الجميع في الفندق يحذون حذونا. كان مولد الـ 800 آمبير موصولاً بوحدات وأجهزة تصل الطاقة المطلوبة لتشغيلها إلى 2000 آمبير لأن شباب الصيانة دأبوا على الاستمرار في أخذ الرشاوى ووصل الناس دون أي تقدير لحدود قدرات المولد الذي لم يكن يكف عن الانطفاء تاركاً إيانا في الظلام الدامس. ثمة صباحات كثيرة اغتسلت فيها بمصباح على البطاريات. بعض الأماسي كنا نتعشى على ضوء الشموع. كان الوضع لا يطاق لدى محاولتنا النوم في الليل. أكثر البغداديين لا ينامون تحت السقوف خلال فصل الصيف. يجرون فرشاتهم إلى الأساطيح اقتناصاً للنسمات القليلة. أما نحن فلم نكن نستطيع ذلك في الشيراتون. من جهة، كان القناصة الأمريكيون متحكمين بقمة المبنى. ومن جهة أخرى، لم يكن ذلك آمناً بسبب وابل قذائف المورتار الموجهة نحونا.

اكتشفت شيئاً جديداً عن نفسي. أُصاب بما يشبه الجنون لدى وصول مؤشر ميزان الحرارة إلى الدرجة 130. بام وأنا كنا نتناوب النوم في بقعة براد وحيدة بالمكتب. كنت أنا أختار الفترة الممتدة من منتصف الليل إلى الثالثة صباحاً والفترة الممتدة من السادسة حتى الثامنة صباحاً بعد ذلك. اكتشفت أنني كنت أستطيع أن أبقى في حالة برودة ما عن طريق أخذ حمام بارد كل ثلاثين دقيقة أو نحوها. كنت آخذ الحمام وأنا في ملابسي، لأنها كانت لا تلبث أن تجف.

في إحدى الليالي عجزت عن النوم خلال نوبتي فقمت ورحت أعمل على الكمبيوتر. لم تكن بام تنام كثيراً على الإطلاق منذ نحو أسبوعين. بدت بائسة، عرضت عليها حبة دوار حركة بقيت معي بعد رحلة بحرية في جزر غالاباغوس

قبل سنة. قلت لها: "ما هو عظيم بالنسبة إلى الحبة هو أنها ليست منومة حقاً، وبالتالي فإنها ستتعبك غير أنك لن تعاني من وطأة النعاس في الصباح." وضعتها في راحتها، رمقتها لحظة، ثم قذفت بها في فمها. بعد ست ساعات، فيما كان المفروض أن أكون نائمة على صوفة المكتب، قفزت بام إلى داخل الغرفة وبصقت عبارة: "لم تعط حبتك أي مفعول!" ثم تكورت على الصوفة. يا إلهي كانت المناوبة لا تزال لي أنا. احتلت مكاني. كان من حقي شغل ذلك المكان ساعتين أخريين. توقفت عن الغمغمة والشكوى بيني وبين نفسي للحظة وأصغيت إلى الظلام. كانت بام تتنفس بعمق. غطت في النوم. ابتسمت. نعم، لم تكن حبتي ذات تأثير، حسناً. صباح اليوم التالي كانت لا تزال هناك حين جاء المترجمون. شغلوا التلفزيون. فريق التنظيفات جاء ونفض الغبار وكنس بالمكنسة الكهربائية. كانت بام ما تزال نائمة. نامت مدة ست عشرة ساعة متواصلة.

حين استيقظتْ أخيراً قالت: "يا إلهي! ما هذا الذي أعطيتني إياه؟"

قلت لها: "أقسم لك أنها حبة دوار حركة. من المؤكد انك كنت مهدودة حقاً من التعب."

كنا، بام وأنا، في المكتب نتسامر مع المترجمين في الأول من آب/أغسطس حين اهتز الفندق بلطف؛ هزة أرضية متسللة ترددا ما لبثت أن ناغشت الزجاج ولكنها لم تحطم شيئاً. خرجنا إلى الشرفة ورأينا عاموداً عملاقاً من الدخان الأسود والأبيض متصاعداً في الأفق البعيد. لم تكن لدينا أي فكرة عما حدث. التقطت عدداً من الصور، ثمة كان عمود الدخان على خلفية سماء زرقاء صافية فيما الشمس غاطسة في كتلة من اللهب الوردي. لم نستطع سماع الصيحات والصرخات، نداءات اللوعة المتصاعدة من كنيسة سيدة النجاة، إحدى الكنائس الأربعة المستهدفة بسيارات مفخخة في تلك الليلة عبر هجمات منسقة. ثمة

كنيسة خامسة نُسفت في مدينة الموصل الشمالية. قُتل ما لا يقل عن اثني عشر شخصاً وجُرح أكثر من خمسين في التفجيرات.

كتبتْ بام التقرير الرئيسي عن التفجيرات، وكتبتُ أنا مادة مرافقة أقصر. تلك الليلة قلت لبام إنني كنت سأتولى كتابة التقرير الرئيس في اليوم التالي، مما كان سيمنحني فرصة الخروج ونقل المزيد مما كان يجري في الشارع. كنا نكثر من المساومة بشأن التقارير اليومية، وكنت شديدة الحرص على عدم تفويت هذه الفرصة. انطلقت في اليوم التالي بحثاً عن مسيحيين أحاورهم لتأليف المقالة. الراهبات في الميتم الأول الذي زرته رفضن الكلام معي ـ بلباقة، طبعاً، حتى بعد أن أبرزت بطاقتي الكاثوليكية وحاولت الإيحاء بالغمز والإيماء من خلف غطاء الرأس. لا جدوى.

كان المسيحي الوحيد في فريق العاملين المسلمين بمكتبنا، غزوان، خلف المقود وأقلني بعد ذلك إلى دير صغير وسط بغداد غير بعيد عن استهداف أحد الكنائس بالهجوم. توقفنا وقرعنا جرس الباب ـ الراهبات رحبن بي وسمحن لي بالدخول. داخل مجمعهن الصغير كانت ثمة حديقة جميلة ذات مرج أخضر منعش وورود قرمزية. المظلات الموفرة للظل لمشاتل الورود كانت تحمل دعايات البيرة الألمانية بلزنر. وفي أثناء تناولنا لأكواب من عصير الكرز المبرد تحدثنا عن حياتهن وعن مدى روعة التعايش السلمي الذي كان سائداً باستمرار فيما بين مسيحيي العراق ومسلميه.

طلبت من رئيسة الدير أن ترشدني إلى الكنيسة، نظراً لأنني لم أكن قد دخلت أي معبد منذ مغادرتي للولايات المتحدة. كانت كنيسة صغيرة بسيطة بجدران بيضاء ملساء ومقاعد خشبية قصيرة، ولكن بنوافذ زجاجية ملونة جميلة مع تمثال منحوت يدوياً لكل من يسوع ويوسف بالقرب من الواجهة. حملت الكنيسة والدير اسم القديسة آن، أم مريم. كان الدير في زقاق جانبي صغير في

أحد الأحياء السكنية الإسلامية. وبعد المغادرة، عبرنا الشارع لمحاورة أناس ممن يعيشون هناك. امرأة في ملابس عادية فتحت لنا الباب ودعتنا إلى غرفة الضيوف. اختفت ثم عادت بغطاء الرأس الإسلامي والجلباب ـ كان عمر وغزوان معي. تحدثتْ عن مدى حزنها إزاء قيام الإرهابيين بمهاجمة المسيحيين. أفادت بأنها تصلي للعذراء مريم لأنها تحب الراهبات وتتصور أن مريم كانت خيراً للجميع. في الحقيقة، عبر جميع الجيران عن استيائهم الشديد من التفجيرات.

وفيما كنا نهم بمغادرة الدير، عجوز في ملابس وأغطية إسلامية مغرقة في محافظتها هرعت من بيتها. انقضت علي وعانقتني وراحت تقبلني وهي تقول: "كم أنا آسفة لأنهم هاجموكم! كم أنا سعيدة لأنكم بخير!" ظنت أنني مسيحية عراقية أقوم بزيارة الراهبات. دعتنا إلى بيتها الإسمنتي المتواضع وعرضت استبقائي للغداء. كان التيار مقطوعاً، وبصوت أشبه بالنشيج تحدثت بألم عن أن أبناءها ذهبوا إلى الحرب العراقية ـ الإيرانية ولم يعودوا. وقالت إن زوجها كان قد مات بعد ذلك فبقيت وحيدة. ظلت تقبلني من جبيني وتناديني: "يا بنتي!" أكدتُ لها أنني سأعود لزيارتها. كنت عازمة على الوفاء بوعدي. غير أنني لم أفعل.

في الطريق إلى الشيراتون تحدثنا، عمر وأنا، بكثير من الانفعال حول القصة. أصبحتُ متوفرة على مادة عظيمة. اتصلت ببام أبلغها عما بات لدي. قررتْ أن تخرج هي أيضاً، فاهتدتْ إلى عائلة مقيمة في دار ملاصق لكنيسة سيدة النجاة التي كانت قد تعرضت للهجوم. في الحقيقة، نجحت في العثور على ثلاث عائلات متعايشة معاً، واحدة مسيحية واثنتان مسلمتان.

"تباً لي!" قلت لعمر بعد إنهاء المكالمة. "ستسطو على قصتي. أنا واثقة من ذلك!"

"امنعيها من ذلك" قال عمر.

"لن أفعل! كان من المفروض أن أتولى أنا سرد هذه القصة!"

التقينا على سلم الشيراتون، عانقتني بام وقالت: "أليس هذا عظيماً؟ أكاد لا أصدق أنني عثرت على مثل هذا الكنز!"

في المكتب همس عمر في أذني مشجعاً: "لا تتراجعي. أنا أعرفك. سوف تتنازلين." وبالطبع فعلت. لم تكن المسألة جديرة بالشجار. كنت أعلم أنها لم تكن تريد اقتسام القصة معي. لم ألمها. فحين تجد قصة عظيمة، تكتبها في رأسك، إنها مادتك، من البداية إلى النهاية. سمعت صوتي. وأنا أردد عبارة: "لا، طبعاً، خذيها! أنا سأكتب التقرير الإخباري وسأزركشه براهباتي. خذي أنت مادة الصفحة الأولى. لديك مادة عظيمة جداً."

لدى خروجي من المكتب متوجهة إلى غرفتي هززت كتفي لعمر. سنقع على عدد كبير من القصص الأخرى. كنت صادقة في حبي لبام. إنها بالغة الطيبة.

لدى عودة بام إلى أفغانستان بعد بضعة أسابيع، كنت وحيدة في المكتب، بانتظار عناصر الدعم المقرر وصولها. لعدم وجود البديل، كنت مسؤولة، الأمر الذي لم يكن يعني من حيث الجوهر إلا التهديد بالشكوى من جهاز العاملين لدى صدام الصغير إذا لم يلتزموا بالنظام. أدهشتني حقيقة أن راجيف والمحررين باتوا بعد أشهر قليلة فقط واثقين بي بدرجة تكفي لتركي وحدي. كذلك شعرت بمدى ثقل المسؤولية. ذات صباح رن جرس هاتفي الخليوي. رجل أعلن أنه رائد في الجيش مع فرقة الفرسان الأولى ببغداد. طلبني بالاسم ثم سألني عن عنوان مقري. لم أعلم ما إذا كان الأمر فخاً فامتنعت عن تقديم معلومات عن عنوان المكتب. سألت عن اسمه ورقمه لأتمكن من معاودة الاتصال. هرعت إلى المكتب لإطلاع عمر ومهند على ما حصل. اتصلت بالرقم، ورد الرائد ثم قال: "اسمعي، لقد اكتشفنا تهديداً بتفجير. نعتقد أن هناك سيارة متوجهة لنسف مكتب

الواشنطن بوست. أريد أن أعرف مكانكم." بعد لحظة صمت جعلت غريزتي تحل محل رأسي وعقلي، وقلت:

"نحن في الشيراتون."

"لستم في أحد البيوت؟"

"حسناً، سأكون بحاجة إلى معاودة الاتصال."

درت نحو عمر "علينا أن نخرج الجميع من المكتب الآن. لابد لنا من الجلاء."

اقترح عمر: "أنت اذهبي. نحن سنبقى".

"لا، ليس ذلك صحيحاً. إما أن نذهب جميعاً أو نبقى جميعاً. حياتي ليست أغلى من حياة أي واحد آخر في المكتب. مغادرون الآن، جميعنا بلا استثناء. أنا لا أمزح. هيا تحرك! بسام أنت أيضاً. إننا مغادرون."

مع توجهي إلى بئر السلم، رن هاتفي من جديد. أفاد الرائد بمزيد من المعلومات. تبين أن التهديد كان موجهاً إلى مقر إقامتنا السابق، لا إلى الشيراتون. ثمة وصف لسيارة سيدان حمراء، ربما هي مفخخة. علينا أن نبقى متنبهين لأي سيارة من هذا الطراز، غير أن الخطر لم يبد وشيكاً بالنسبة إلى مقر إقامتنا الراهنة في الشيراتون. زوبعة من الانفراج تملكتني. بدا الخطر قريباً، قريباً جداً.

أصدرت أمراً: "هيا يا مهند، اجمع الحراس والسائقين. أريد الاطمئنان. فتشوا كل الغرف، فتشوا ما تحت الأسرة، جميع الخزائن. فتشوا آنية المطبخ. دققوا في كل ما قد يبدو في غير مكانه. أريد أن أمارس هذه العملية مرتين في اليوم خلال الأسبوع القادم. لدى شروعكم في ذلك. سأتصل بواشنطن وأطلعهم على ما حصل للتو." ما كان قد حصل للتو؟ لم يكن لدي الوقت اللازم للتفكير بالأمر. لم أكن راغبة في التفكير به. وجهت رسالة إلكترونية إلى راجيف.

"يمكنك استعادة مكتبك الآن، أيها الأنيق!"

لدى موت جدتي أواخر حزيران/يونيو 2004، لم يسعني إلا أن أفكر بأنها ماتت وهي تحمي جاكي، ماتت وهي تمنح حفيدتها حكماً بوقف تنفيذ حكم الإعدام الصادر بحقها جراء العنف المتصاعد في العراق. بدت زيارة أختي غير المتوقعة التي دامت أسبوعين في النصف الأول من تموز/يوليو أشبه بهدية، نعمة من السماء. لأسابيع ظللت أحلم بالموت، وحين اتصلت خالتي لتبلغني بأن الجدة كانت قد ماتت وهي نائمة في بيت المسنين حيث كانت تعيش في إيلينوي، شعرت بالاطمئنان بعد وقوفي على حقيقة أنني كنت أنتظر لعبة الموت الخطأ بسبب أحلامي.

منذ سنوات ظلت جدتي تتنبأ بموتها وتنتظره. لم تكن محتضرة بمقدار ما كانت متأهبة. وذات عيد ميلاد، قبل موتها بعدد غير قليل من الأعوام، طلبتْ من خالتي بيث، صغرى بناتها، أن تشتري لها بلوزة بيضاء. حين فتحت علبة الهدية، ابتسمت ونشرت البلوزة عبر صورها معلنة: "ستكون هذه بالغة الروعة في تابوتي." إلا أنها لم تمت آنذاك. ما لبث أحدهم أن نزع بطاقات السعر والمؤسسة التجارية عن البلوزة، ولبستْها لسنوات قبل أن تقوم المحنطة بإزاحتها عن كتفيها العظميين وسوّت القبة تحت ذقنها المبودرة.

كنت أعشق جدتي إلى درجة العبادة. لو كنت أصغر سناً، لو لم يكن أبي ميتاً، لو لم تكن أختي في العراق، لأدى موت جدتي إلى تدميري. غير أنني لفرط ما أمضيت من الوقت عاكفة على الدعاء لأختي بالنجاة والاستمرار في الحياة شعرت بنوع من الارتياح إزاء موت بدا منسجماً مع النظام الطبيعي. جدتي انسحبت ببساطة ويسر، تواقة إلى السماء. أما أختي فكانت في عزها، مالئة علي حياتي، مفعمة بالحياة، وراغبة في أن تبقى كذلك.

في الجنازة، لم أذرف دموعاً، لا لأنني لم أكن أحب جدتي أو لأنني لم أكن سأفتقدها كثيراً، على نحوٍ مرعب. بل لأن موتها كان ذا معنى، كان مفهوماً ببساطة. وافقت جاكي على تأبينها، وقد بدا ذلك، أيضاً، معقولاً وذا معنى. الحفيدة الآتية لتوها من الحرب، متحدثة خلف المقرأ أو المنجلية، فيما الجدة ممددة في التابوت الموضوع أسفل درجات المذبح. في الأشهر الأخيرة من حياتها، حين صارت تعاني من التشوش في تذكر أفراد أسرتها بالذات وحين صار الزمن الحاضر يراوغها ويفلت منها، كانت جدتي تتذكر العراق، تتذكر أن أختي كانت هناك، وبدت متفهمة السبب.

حين نهض أهلي وأقاربي من مقاعدهم للسير خلف النعش بين صفي المقاعد إلى عربة الموتى المنتظرة، أصابتني نوبة فزع فتمسكت بالمقعد لأصمد. في أحلامي، كانت أختي هي الممددة في ذلك التابوت، وقد تعين على زوجي أن يحملني، لأني كنت أضعف من أن أمشي وحدي. إلا أن هذا لم يكن ذلك الحلم، شعرت بأن ساقي كانتا ثابتتين، تمشيان بقوة. عيناي ضاقتا متركزتين على ظهر أختي، على كتفيها العظميين ملفوفين بالسواد، ذراعها اليمنى تلف أمي وهما ماشيتان. تركزت على أختي، مازالت حية، تتقدمنا جميعاً فيما بين صفي المقاعد إلى عربة الموتى المنتظرة في الخارج.